

العجائبية في السرد العربي المعاصر

1- في مفهوم العجائبي:

وردت لفظة عجيب في المعاجم العربية بمعنى " إنكار ما يرد عليك لقلّة اعتياده(1)، أو بمعنى " النظر إلى شيء غير مألوف ولا معتاد"(2) ويكون التعجب مما خفي سببه ولم يعلم"(3) واللفظة بهذه الدلالة تحيل إلى القطيعة مع المألوف، والابتعاد عما هو مقبول عقلا أو مستساغ منطقاً.

وبعد أن أدرج المصطلح في حقله الوظيفي الأدبي النقدي تشارك في دلالاته مع العديد من المصطلحات العربية الأخرى القريبة من دلالاته، والتي سعى موظفوها إلى فرضها بديلاً ، كل من منظوره وحجته المغايرة، أهمها: الفنتازيا، الفنتاستيك، الغرائبي، السحري، الاستفهامي ... وهي المصطلحات التي تشترك جميعاً في الإحالة إلى اللامألوف والخارق. لقد أشار النقاد إلى أن مشكلة الاصطلاح هذه نابعة من عدم إيجاد بديل لفظي لمصطلح (Fantastique / Fantastic) على النحو الذي هو مضبوط فيه دلالة على مستوى القاموس النقدي العربي ، ولذلك أجمع جل النقاد - بعد الكثير من الاجتهادات الاصطلاحية - على أن لفظة " العجائبي " هي الأنسب للمقابلة المفهومية ، وذلك تأسيساً على ما تحمله اللفظة من دلالات معجمية عربية سابقة عن الاستخدام الاصطلاحي كالروعة والاندهاش والخيال والوهم والخارق.

أما من الناحية الاصطلاحية وصفه " تودوروف " [وهو من أصحاب السبق التنظيري في تحديد دلالة المصطلح والإشارة إلى تمظهراته وجمالياته من خلال كتابه " مدخل إلى الأدب العجائبي " الصادر عام 1970] بقول جامع: إنه الأدب الذي يخلق التردد الذي يصيب المتلقي الذي لا يعرف غير القوانين الطبيعية، ويجد نفسه أمام وضع فوق طبيعي حسب الظاهر.

فعندما نجد انفسنا أمام ظاهرة غريبة يمكننا تفسيرها من خلال المسببات الطبيعية أو فوق الطبيعية وهذا ما يخلق هذا التأثير العجائبي(4). وهو ما يكفل القول بأن العجائبي قائم على صهر ما هو واقعي مع ما هو خيالي، في حالة تجاوز لما درج عليه الإنسان من مقتضيات سببية، وذلك بتوظيف المحول والمحور والمشوه جنباً إلى جنب مع الحقيقي والمعقول، وهو ما يدفع المتلقي إلى العجب والحيرة من فنية اللقاء بين العالمين المتناقضين ، ويكسر أفق التوقع المنطقي ويولد بالمقابل الاستغراب من الخوارق والخروج عن المعتاد، هذا دون أن يسمح لنا العجائبي بالحكم على أنه خطأ أو كذب أو تظليل لأن انتفاء السببية أو تعليق المنطق أمام حادثة لا يكفل أبداً تكذيب خبر وقوعها (مثل المعجزات) لأن العجائبي ذو " طابع احتمالي"(5).

2 - صور العجائبي في النصوص السردية :

إن الكتابة السردية العجائبية الحديثة والمعاصرة هي فعل يهدف إلى استجلاء المهمل، والكشف عن المسكوت عنه، وتجاوز المطروح، وإعادة الاعتبار للمقصى رقابياً

(1) ابن منظور، لسان العرب، المجلد: 8، مادة، (عجب)، ص: 580

(2) محمد مرتضى الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تح: عبد الكريم العزباوي، مطبعة حكومة الكويت، الكويت، ط2،

1987، مجلد: 3، مادة (عجب)، ص: 319.

(3) المرجع نفسه والصفحة.

(4) تزفتان تودوروف، مدخل الى الادب العجائبي، تر: الصديق بوعلام، دار الكلام، الرباط- المغرب، ط1، 1993، ص: 54.

(5) المرجع نفسه، ص 44

بفعل القوانين والمحرمات، فيؤتي بالعجائبي في ظل هذه الأهداف للتعبير به بطريقة رمزية عن واقع لا يمكن بحسب المبدع تشخيصه إلا بعد تجريده وتقديمه للقارئ في حلة عجائبية . ومن أهم هذه الروافد التي يستقي منها المبدع مادته العجائبية نذكر:

- الخرافة .
- الصوفي .
- الكرامات والمعجزات .
- المنامات .
- الأسطورة .
- أدب الخيال العلمي .

يجب على النص المتشرب للعجائبي فتح باب التأويل، بناءً على خصوصية كل رافد من الروافد الأنفة الذكر، " لكي يتسنى للقارئ في صدامه الباطني مع المؤلف وغير المؤلف - الطبيعي وغير الطبيعي- تأسيس علاقة جدلية مع المقروء من جهة ومع النصوص الخلفية المغذية لهما (النص والقارئ)⁽⁶⁾ وبذلك فقط يمكن القول بفاعلية استنطاق النص العجائبي والقدرة على كشف وظيفته وشعريته .

3- تشكيلات العجائبي في السرد العربي المعاصر:

لقد عرف السرد العربي العجيب والخارق منذ بواكير النصية الناضجة الأولى، وذلك من خلال قصص ألف ليلة وليلة " وما تحمله من خوارق، ونص " كليلة ودمنة "، وبعض السير الشعبية، كسيرة سيف بن ذي يزن وسيرة الزير سالم ، وسيرة بن شداد وغيرها من النصوص التي تخفي بعننا الحراة السردية العربية. ونجد العجيب بتشكيلاته المختلفة ماثلا في كتابات أبي العلاء المعري في رسالة الغفران و منامات الوهراني و رسالة التوابع و الزوابع لابن شهيد...فكل وظف العجائبية بطريقته سواء كانت على مستوى الأماكن المتخيلة وتحرك الشخصيات في أماكن سماوية أو تحت أرضية وتخيل الجنة والنار أو على مستوى الشخصيات بتخيل الجن والسحرة والحيوانات الممسوخة.. أو على مستوى الرحلات الوهمية كالتخيل و الحلم و المنام...معناه أن العجائبية موجودة في تراثنا القديم الذي كان مادة خصبة توظفها المسرودات الجديدة.

وبالنظر إلى سرودنا العربية الحديثة والمعاصرة نجد أن العجائبي أصبح سمة نصية مألوفة ، إذ بعد أن كان علامة على بعض النصوص العربية القديمة ، أصبح علامة حدثية جامعة بين عوالم الإبداع السردية وعالمنا الحقيقي المشحون بالتوتر، الباحث عن وسائل جديدة للتعبير عنه ، فمن بدايات القرن العشرين " بدأ هذا الأدب (العجائبي) ينفرد ويخرج من كونه عنصرا مساعدا على التخيل ليصير " قاعدة وليس استثناء "، وكانت بداية ظهور هذا التوجه في الأدب نوعا من تعميق الرمز بهدف تمرير الانتقادات السياسية والاجتماعية والدينية...⁽⁷⁾ وبذلك نجد أن النصوص السردية العربية الحديثة والمعاصرة (في مقدمتها الرواية) حاولت التعبير بالعجائبي لا عنه ، ولعل سياقات إنتاجها تكفل لنا الحق بالقول إن

(6) محمد سالم محمد طلبة، مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر، دراسة نظيرية تطبيقية سيمانطبقيا السرد، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت- لبنان، ط1، 2008، ص 248.

(7) محمد السالم محمد الامين الطلبة، مستويات اللغة في السرد العربي المعاصر، ص 247.

استخدامه أصبح ضرورة فكرية وثقافية معاصرة ، خاصة إذا واشجنا بين جانبه الوظيفي التعبيري وبين ما يلحق النص من جماليات فنية إثر توظيفه.

وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن النص السردي العربي الحديث والمعاصر لم ينفك في توظيفه للعجائبي عن الكتابات العالمية التي تقوم بذلك ، ولم يخرج عن الأطر العامة التي تميز هذا النوع من الكتابة ، إذ عاد النص العربي إلى الروافد العجائبية دائماً: (الأسطوري / المعجزات / السحر والشعوذة / الخيال العلمي ...) ، ووظف ذلك في أطر كبرى مشاعة نذكر منها :

- السنة الجماد و استنطاقه

- السنة الحيوان .

- تصوير الحيوان بشاكلة خرافية .

- خلخلة الصورة البشرية بالمسح و التحول

- إقحام الغائب في التعبير عن الواقع (عوالم الجن والأرواح / حضور الأسطورة)

- إعطاء الأمكنة أبعاداً غير أبعادها الحقيقية مثل ما هو موجود في الخيال العلمي.

- الانتقال عبر الزمن

- النفاذ في عوالم الروحانيات (الصوفي السحر ...) .

إن هذه الاختيارات التعبيرية وغيرها تدمج النص السردي العربي في خانة العجائبي العالمي إلا أن الفريدة تصنع عربياً من خلال تفاصيل الموظف وآليات اشتغاله داخل العمل السردية، وهو ما يكسب الخطاب سمات دلالية وجمالية خاصة.

ومن ضمن النصوص السردية العربية التي تضمن دلالات الخارق والعجيب ، وهي نصوص رائدة في مجالها وصالحة للتطبيق والتدليل (على مستوى الرواية والقصة القصيرة بما هما الأكثر تشرباً للعجائبي) نذكر:

الرواية

- الطاهر وطار : (الحوات والقصر) ، (الولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي / يرفع يديه بالدعاء)

- محمد ساري (الغيث) - سليم بركات (فقهاء الظلام)

- الحبيب السائح (زهوة) - إدوارد الخراط (رامه والتنين)

- يحي القيسي (أبناء السماء) - الطيب صالح (بندر شاه) ، (عرس الزين)

- جمال الغيطاني (كتاب التجليات) - يحي حقي (السلحفاة تطير)

- صنع الله إبراهيم (اللجنة) - إلياس خوري (أبواب المدينة)

- محسن بن هنية (على مرافئ الجنون)

- إبراهيم الدرغوثي (كلاب الجحيم) و (القيامة الآن)

القصة القصيرة :

- فرج ياسين : (رماد الأقاويل) . -

- عمران عز الدين (موتى يقلقون المدينة)

- محمود الريماوي (عودة عرار)

- مصطفى العنتيري (مظلة في القبر) .

قصص زكريا ثامر ..